شطحات موت حيوية

- ما زال في العمر بقية...

كثيرا ما كنت أقولها. أذكر جلستنا. أبتسم لتنسال الدموع سريعة على وجنتيّ. أذكره يقول:

- ما بالك كسول؟ انهل من الحياة...

أداعبه بعبارتنا المحببة:

- ما زال في العمر بقية.

أغفو فيلوح لي مبتسما بنظارته السميكة. لـه أجنحـة كأجنحـة الطير. يحلّق فوقي فأسمع حفيف الهواء من حولنا. أسأله عن حالـه. يقول:

- لولا الموت لنهلت من الحياة؛ الموت كئيب.

أنقبض. أسمع صوت عجلات تصرخ على الإسفلت في الـشارع المجاور. أنهض مذعورا؛ فأسب السائق والدنيا بمن فيها. تقع عينـاي على مكتبتي. أسرع نحوها. أقرأ حتى أنصهر فأنسى الكـون. أذكـر محبوبتي. أهاتفها فيجيئني صوتها الملائكي ناعما رائقا. أسألها:

- كيف حالك؟

تقول بهمس يذيبني:

- أحبك.

-أريدك الآن.

– لم؟

– أشتاق إليك.

وكأنها كانت تنتظرها. جاءت تقول:

– كلمتكَ أذابتني.

أتأمل عينيها الواسعتين. أضمها فننصهر. أحتويها فنضحى كيانا واحدا. أضاجعها فنرتوي. تقول:

– ما بالك؟ أشعرك تنهل منّي حتى الثمالة.

أقول شاردا:

– لم يعد في العمر بقية.

منزعجة:

– لم تقول هذا الكلام؟

مستدركة والدموع تلمع في مقلتيها:

– أرجوك، لا تتفوه به ثانية.

أفاجئها:

– ما رأيك في الخروج؟

– أين؟

– في أي مكان.

أجذبها مسرعا حتى لا أعطيها الفرصة للتفكير. في بار "ستلا" جلسنا. احتسينا الكثير من البيرة بشراهة. نظراتها قلقى. ألمحها فأهرب منها. بتساؤل:

– ماذا هناك؟ هل هناك ما يشغل بالك؟

أقول مبتسما:

- لا...لا شيء.

- إذن كفاك شرابا.

- انهلي منه... لم يعد في العمر بقية.

أراه أمامي جالسا على المقعد المقابل. يومئ لي برأسه محييا ثم يرفع الكأس محتسيا إياه. أبتسم له لأنتقل عنده تاركا إياها. أقول متسائلا:

- كيف رجعت؟ ألم تمت؟

- بلى، لكني اشتقت لكأس من تلك البيرة الملعونة فرجعت.

أضحك بملء فيّ لتنحدر دموعي غزيرة. أقول:

- كيف الحال هناك؟

متهكما:

- أيهما تقصد؟ الجحيم أم النعيم؟

- كلاهما.

- لا فرق، كلاهما سواء.

أشرد متأملا إياه. أقذفه بكأسي في وجهه لأتركه. يختفي رويدا. أخرج لعرض الشارع. أتوقف عند مكتبة مدبولي. أتأمل الكثير من الكتب المعروضة. تقع عيناي على "بؤس الفلسفة" فأضحك:

- أي بؤس يا ماركس؟

أراه أمامي. أقول:

- ألم أتركك في البار؟

- أريد مؤانستك.

- لست أبحث عن أنيس.

أتركه لأتأمل إحدى الفتيات في بنطالها الضيق، وصدرها الرائع الذي يكاد أن يمزق ملابسها. أشير إليها فتبتسم. أتساءل:

- إلى أين؟

- إلى اللاجهة.

- إذن هيا بنا.

في شارع أمين سامي أقبّلها. تنظر إليّ بدهشة. تقول:

- انتظر، لم التسرع؟

أردد:

- ليس هناك وقت، الأفضل أن ننهل منها.

نمتزج في إحدى القوارب الشراعية. أنصهر داخلها فتملأ تأوهاتها المنتشية أذنيّ. أتذكر معدتي الخاوية حينما أشعر بألمها. أسرع نحو أحد المطاعم. أعبئ الطعام داخلي حتى أكاد أن أنفجر. أخرج وقد أحسست بالتخمة. في أحد الأركان أضع إصبعي في فمي فيندفع الطعام وكأنني أبصق معدتي. أسمعه يضحك لتملأ ضحكاته الكون من حولي. أسبه رغم حبي له. أتذكر أن محبوبتي كانت معي. لست أدري أين تركتها. أجهد ذاكرتي بلا فائدة. أسرع نحو بيتي. أدخل مكتبي لأكتب الكثير عن السينما ومدى تأثيرها على العقل الجمعي. أشعر بالإجهاد. أخرج مرة أخرى فأشعر ببرد شديد. أتدثر بمعطفي متجها إلى لا شيء. رغبة عميقة في التسكع تمتلكني. أتسكع

على كوبري قصر النيل. أتأمل رواده. ممتلئ بالكثير مـن العـشاق. أتأمل سطح الماء الهادئ فتحتويني رغبة مجنونـة. أعتلـي الـسور الحديدي. أقذف نفسي بهدوء تام لأردد:

– لم يعد في العمر بقية.